أحمد خلف

حكاية عجيبة

لا أدري كم مضى على وجودي إلى جانب سرير أبي في المستشفى. الساعات المتبقية ستكون آخر ساعات نوبتي التي أمضيها معه، بعدما أنهكني بحكاياته المتسلسلة الطويلة. كان يقصّ عليّ ما يَرِد إلى ذهنه خلال اللّيالي المنصرمة، وأنا أصغي إلى سيل الكلمات. لم يكن ساحراً بل كانت شهوتُه إلى الكلام لا حدّ لها، اللّه وحده يعلم من أيّ خرجٍ كان يستلّها ويلقي بها عليّ في ليالي مرضه العضال، حتى إذا أناخ عليه الداء وأحاط به، تراجَعَ منقبضَ النفس عديمَ الرغبة في شيء. كان يقول لي:

ـ أنا آخر الناجين من الماساة. أبناء جيلي وحدهم ابتلوا في المحنة لما اندفعتِ العاصفةُ الهوجاءَ تَكْنس في طريقها شيئاً حياً. نحن غرقى إعصار يا بنيّ!

كنتُ أُهزّ برأسي مع حركة يده النحيلة وهي تتدلّى من حافة سريره. لم يكن يُمْهل نفسه لكي يستردّ أنفاسه. كم مرّة غفوتُ في حضرته متّخذاً جلستي على السرير المواجهِ لسريره، جلسةَ القرفصاء، وقد أوصاني طبيبُه بضرورة مراقبته خلال اللّيل. أغلب الظن انّها سبع ليالٍ مضت، واللّيلةُ هي آخر ساعات نَوْبتي معه. لا محال سأُسلمه إلى أول قادمٍ يعتني به من أفراد أُسْرتي. وبدت أنفاسُه رتيبةً، وعيناه نصف مغمضتَيْن، وذراعاه ممتدتَيْن إلى جنب. لم يكن ساحراً، لكنّه غالباً ما غادر فراش مرضه وكان يئنّ تحت وطأة موته المؤجّل، ثم ما يلبث أن يتحلحل ويَنْفض عنه غبار رقدته، كأنّه يزيح عنه كسلاً مترسّباً، وينهض معتمداً على بقايا من طاقته الجسورة، وعيناه يحتدم فيهما غضب مستعر من نفسه لأنّه تهاون في الرقاد والاستسلام إلى براثن العلّة. يقف مندهشاً وسط الغرفة، تحت

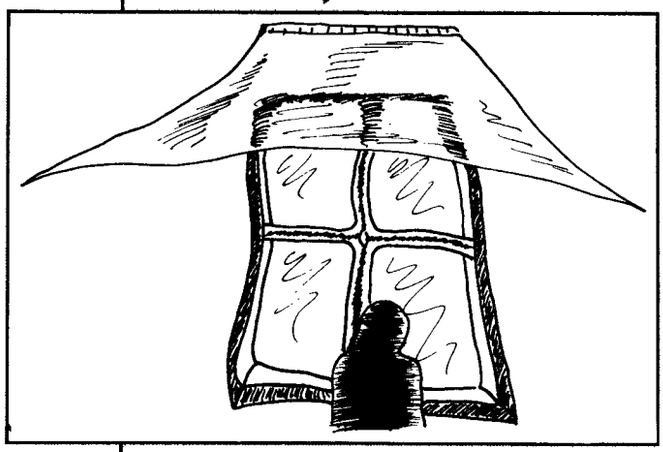

تأثير حرارة الجسد أو برودة الأطراف، وفمُه يزفر نفثاتٍ من حكاية يأتي على وسطها أو نهايتها أو يتذكّر جزءاً منسيّاً منها ويصيح:

ـ كان اليوم الأول أصعبَ الأيام قاطبةً. كنا نقطع الأميال تلو الأميال للوصول إلى تلك المدينة... ما اسمها؟ كانت أقدامنا حافية، والسماء لم تقصّر في زخات مطر متقطّع. سبعة أيام هطلتْ فيها السماء مطراً كاد يُغرق الأرض. لو شاء المطر أن ينزل مرّة واحدة لأراحنا، لكنّه كان يأتي دفعاتٍ، وأقدامُنا تغطس في الوحل الذي خلّفه مطرٌ غزير ورطوبةٌ آسنة. كنا نحلم في أن تَظْهر الشمسُ علينا لتنشّف أجسادنا الرخوة التي هدّمها السيرُ الحثيث في فضاء مهجور وأرض بور لا يحدّها حدّ. كنتُ أرى خيولاً تسابق الريح والتماعة الضوء على الآسنة تشبه خطف البرق في الفجر. كنّا نغذّ السير فجراً كأنّنا نمشي في أرخبيل الموت. وكان التعب قد هدني، فتعللتُ بالصبر الجميل. ثم لطمتنا الرمال بقسوة نادرة. خيّل إلى بعضنا أنّه يقاتل أشخاصاً حلّوا علينا بمحض التحدّي

المفاجئ لنا. كان السير في التيه وحده بمثابة قتالٍ يوازي الموت، وتفوق مرارتُه اختراقَ السيف للرقبة.

عند ذاك رأيته يقبض على حافة الفراش باستسلام وطواعية أثارت الشجن في خاطري، بينما راحت إحدى يديه تعبث بالشرشف القطنيّ الأبيض، قماش غرفة المريض، لوازم موته المؤجّل إلى حين. رأيته كالولد أُفسِدَ خاطرهُ إثر حادث مروع أو مصادفةٍ غير متوقَّعة في الطريق إلى الهدف المبتغى. راحت الأصابع كلها تلمّ قطعةَ القماش وتدعكها ببطء : أصابع نحيلة تحاول اختراقَ قماش الشرشف أو جَمْعَه مثل كرة صغيرة بحجم القلب الراعش، عجينة ناشفة، والجلدُ الفاقع يشي بعجزٍ تام، لولا أنّ عينيه تحدِّقان إلى سقف الغرفة مليّاً. رأيتُ بضع بقع سمراء، بعضها داكنة وكالحة. وحين حرّك إحدى ساقيه كشف عن ثنيات عديدة، صغيرة ومتناثرة، تجمعتْ أسفلَ المقعد وحوله كأنّها ضُغطتْ عمداً، وحسبتُ أنّه «فعلها» في ساعة ضيق، حين زحفت الآلامُ عليه. فتح عينَيْه برهةً، وكذلك شفتَيْه وهو يُثبت نظراته على جلستي القرفصاء قبالته على السرير الآخر.

**كان أصعب الأيام قاطبةً يوم دخلنا مقبرةً بعد منتصف الليل. يا إلهي، لقد روّعتنا المفاجاة وهزّنا المشهد كله. وجدنا عشرات القبور تحيط بنا من كل جانب. ولما سقط احدُنا مغشيّاً عليه في أحد القبور، تركناه يعالج حالته بنفسه، لأنّ وميضاً توهّج في قلب السماء، وميضَ ليالينا المتهالكة. صاح رجل من جماعتنا: «تمسكوا بحبل الصبر». كنتُ رابط الجاش لأنّي أعرف طاقتي على التصبُّر واصطناع الحيلة على البلوى. ولما خطونا كلنا خطوات أخرى داخل المقبرة، سمعنا صاحبنا يفيق من موته المؤجّل، وينادي علينا مستنكراً فعلتَنا الشائنة: «لماذا تخلّيْتُم عني يا أشباه الرِّجال؟». انتفضتْ جلودُنا من أجسادنا، وأوشك بعضنا أن يُطْبق عليه. رقّ قلبي لاستغاثته، ومع أنّ شتيمته ظلّت ترن في رأسي كضربات ناقوس كنيسة مهجورة فإنّي عدتُ إليه. وجدتُه ينوح على ركبتَيْه وذراعَيْه كجملٍ هدّه التّعب. رفعتُه من ساعديْه. كانت قامته أقصر ممّا توقعتُ، وجسدُه الضامر أحاله السيرُ بلا طعام إلى شبح أو طيف. رفعتُه بقوتي المتبقّية والقيتُه على ظهري، وسرت به كما تسير الأم الحانية. كنا جميعاً نتعثّر في طريقنا، الذي أضاءه لنا قمرٌ شاحب يندلق من فوهة من السماء على مقبرة هدمتها الأمطار والرياح. لكنّي فوجئتُ به بعد مسيرة قصيرة وسط المقبرة، وأظن أنّنا كنا نوشك على الخروج منها إلى أرضٍ تَصَوّرنا أنّها ستقودنا إلى قرية أو مدينة أو قصبة، يصيح بي: «أنا عطشان، ألا يوجد لديكم ماء؟». كدتُ أنفجر بالضحك من مطلبه العسير، إذ كيف يفكّر أن يضعنا في الموقف الصعب؟ من أين لي بالماء: وكي آتيه به؟ لم أردّ عليه، بل واصلتُ السير به. ولما يئس من تلبيتي لطلبه، راح يشتم آباءنا على هواه. ألقيتُه أرضاً وتركته مسجّى في التراب الرطب. انقطع منه الصوت، وتراجع الأنين. ثم هلّل أحدنا صارخاً بنا وسط العتمة الشاحبة: «إنّنا في نهاية المقبرة. سنغادرها قريباً». وصاح آخر: «نحن خارجها الآن، فلنسترح». لكنّنا لم نصغ إليه لأنّ السير غدا عادتنا ولم نعد نعير اهتماماً أين نسير في هذا اللّيل المدلهمّ. وفجأةً سمعنا الرجل يناديا من هناك: «ساموت، أعطوني ماءً». قال رجل منا: «لنذهبْ ونأتِ به». ذهب اثنان وحملاه على كتفيهما. قال رجل ساخر رغم مصيبتنا: «سيموت عطشاناً. ألا تعلمون أنّه لا يطلب الماءَ إلاّ اثنان: رجل عطشان، ورجل يغادر الدنيا فلا يريد أن يترك للناس وراءه قطرة ماء كما يظن؟». ضحك بعضنا، لكنّي تلمستُ الرجل وهو على

كتفي حامليْه. كان قد تيبس تماماً. توقفنا عن المسير. القياه على الأرض الرخوة. واضحٌ أنَّه أسلم الروح ولم تعد أنفاسه تهبط أو تعلو. قال أحدنا: «ليتنا تركناه في المقبرة ليموت. حتماً كنّا سنجد له قبراً شاغراً. أما الآن فاين سندفنه؟».

كان الغطاء الأبيض الخفيف يتدلّى إلى الأرض. دخلتْ إحدى الممرِّضات وألقت نظرة عجلى علينا، ثم عادَتْ أدراجها مسرعة، كأنَّها شمت رائحة سمك متروك منذ أيام خلت، أو رائحةَ موت تزكم الأنوف. لم تغلق الباب وراءها، بل تركته مفتوحاً على مصراعَيْه. قلتُ: من الأفضل حصرُ طاقتي بالمريض. سمعته يئن ويتمتم: «سيقضي عليّ هذا المرض اللعين. آه يا صاحبي أيّ حلم عجيب رأيتُ اللّيلة الماضية». لملم المساءُ خيوطَ الظلام، ونَشَرَها على أرض الممر، وجعلها شبكة تستلقي عند باب الغرفة. حين أزحتُ ستارة النافذة رأيتُ أنوار المدينة تشع وتنتشر في جهات عدة. أُضيئتْ ثلاثةُ مصابيح كانت متدلية من السقف، أحدها بالقرب من رأس المريض واثنان متقابلان كأنَّهما يضيئان مساحة وهمية من المكان. امتلأت الغرفةُ بالضوء، كأنّ التوهُّج الساطع يضيء زاوية وُجدتْ لمريض سيأتي قريباً. لكنّ السرير الآخر ظلّ فارغاً لم يشغله أحد. اتخذتُ جلستي على حافته بالقرب من سرير أبي.

ـ آه، أما زلت موجوداً هنا؟

حرّك رأسه بعد ما بلَّلَ شفتَيْه بطرف لسانه، أغمض عينَيْه برهة. تحركتْ يده القريبة منّي وأمسكتْ بأصابعي. ضغط عليها لكي يثير انتباهي: **ركعنا كلنا حول الميت. قال أحدنا: «لا يصحّ أن نتركه في العراء وحيداً مسجّى على تراب نديّ، والمطر ينزل بين حين وآخر». وسمعت آخر يقول: «إذا ما تركناه هنا، سوف تشمّ الذئاب رائحته وتاتي زرافات ووحداناً». تبينت الصوت في عتمة المكان؛ إنَّه الصوت نفسه الذي تدفق بالحكمة عن عطش الميت وجموده. قلتُ : سنحفر له حفرة كافية..**

ـ لا يمكن. ستاتي الذئاب وتُخرج الجثة.

ـ وإذا أحاطت به الأمطار؟

ـ الذئاب لها قدرةُ الكلاب على نبش جثث الموتى.

ـ ماذا ترون إذن؟

ـ لنحملْه معنا إلى مكان بعيد.

ساد صمت بيننا؛ فمَنْ سيحمل الجثة حتى مسافة أخرى وسط الطين والأوحال، والليلُ ينزل علينا دون مرتجى بانقشاع ستاره المظلم؟

قلت: وإذا مات آخر؟

ـ سندفنهما معاً.

ـ ستكون وجبةً كافيةً لعشرة ذئاب جائعة!

كانت الجثة قد تيبستْ تماماً، وغدتْ كخشب التابوت، وما عاد باستطاعة أحد أن يجد جواباً أو يبادر بسؤال. لقد بات علينا، إذن، البحثُ عن حفرة تحويه في مثواه الأخير.

كنا وحيدَيْن. غرفة بيضاء سادها الصمت، كلُّ شيء فيها أبيض، والظلال الرقيقة تميل وتهتزّ مع الستارة الوحيدة في الغرفة. حدثتني نفسي بالنهوض وإلقاء نظرة على المدينة لاقتناص المعنى؛ فقد بدا كل شيء من حولي عسيراً وغامضاً، والبياضُ الأبله هيمن على الموجودات كلها،

وترك الظلال الخفيفة تتحرّك كالأشباح في اللّيل البهيم. وتوهمتُ برهةً أنّ ذلك يحدث رغماً عني؛ فالبياض ظلّ يجتاحني كضباب يغمر مدينة. مسحتُ قطرات عرقٍ رشحتْ من جبهته وجبينه وانحدرتْ حتى سالفيْه. تناهت إليّ خطوات في الرواق الطويل، وقد أضيء بالمصابيح أخيراً. لما أصغيتُ إلى الوقع وهو يقترب ويدنو بحذر من الغرفة، تعللتُ ببعض الصبر. لكنّ غشاوة من ضباب اجتاحت عينيّ. يا للتعاسة السفيهة، حتّام أبقى سجين البياض العديم المعنى؟! إذاك، توقفت الخطواتُ برهةً وما لبثتْ أن اختفت. حرّك شفتَيْه ببطء شديد. لم يتمكّن من فتح عيْنَيْه، فكأنّ الضوء تجمّعَ في نقطةٍ جعلته كالضرير، لا يدري أين مصدر الضوء. راح يهمس بفيض تعاسته، كأنّه يحدّث نفسه لئلا يفقد الماضي من بين يديه مرةً واحدةً وإلى الأبد. والإشارة التي أتت منه أوحت بنداء خفيّ: أتراه ينتظر أحداً كأنّه يحمل رسالة حرص على ألا يبوح بها؟ عادت شفتاه إلى الحركة والعينان نصف مغمضتَيْن. أتراه كان يحاور شخصاً وهميّاً لا يراه أحدٌ سواه؟

قيل لي إنّي كنتُ سبباً من أسباب موته. لا أدري كيف، لكنّهم صاغوا اتهامهم لي بالباطل. لم أشغل بالي أولَ الأمر لأنّي حاولتُ تناسيه، فقد كانت قدماي الحافيتان قد تجرّحتا بفضل السير الطويل. هم أيضاً كانوا يَشْكون من الآلام المبرحة في أقدامهم. لعلّ الخدر الذي اخذهم دفعهم لاتهامي باطلاً. كنا حائرين ماذا سنفعل بالرجل وجثته الملقاة على الأرض الندية. سمعتُ أحدنا يقول: «على أيّة حال لم نكن جبناء أو خوّافين، لكنّ الأمر غلبنا، وها نحن نميت بعضنا بأيدينا، كأنْ لم يكفنا ما عانيناه من موت وتجنٍّ». لم يجب احد، إنّما خرجتْ مني زفرةٌ طويلة أشبه بالأنين. ولما حاولتُ إزاحة الطين عن حافة قدمي، وجدتُ الجرح غائراً والآلام تُثقل على روحي. لا احد يعلم أين كانت أمُك في تلك الساعة بالذات. أما نحن فقد دخلنا وادياً عميقاً، توجّب علينا الصعودُ من خلاله إلى الحافة، وأصبح لزاماً علينا إلقاءُ جثة الرجل في عمق الوادي؛ اقترح علينا ذلك رجلٌ منا كان متمرّساً في الإخفاء والخديعة، ولم أفتح فمي بشيء لئلا يغدو ذلك اتهاماً جديداً ضدي. قال أحدنا «لو نسير على أيدينا وأقدامنا يخفّ ثقلُ أجسادنا على جروحنا الفاغرة». لم يسمعه احد، والذين سمعوه تجاهلوه وساروا خائري القوى، مستندين واحدهم إلى الآخر، كأنّهم يسيرون في أرض الجحيم.

كان الحوار يَطْرق جداراً رقيقاً كلّستْه الأماني الضائعة في عدم الشفاء، فلم يعد أمامه غيرُ الإصغاء والإذعان إلى وهم الخلاص من البلوى. وفي كل مرّة تُسجيه فيها على فراش المرض أو الموت يأتيه الرنين خافتاً متقطّعاً، والتردُّدات لا تكف عن الطَّرْق المتواني. لكنّ رخاوة المريض ويبوس خاطره ضيّعا عليّ إدراك كنه ذلك الرنين، الذي حدّثني عنه أكثر من مرّة.. قال: **أول مرةٍ جاءني فيها الصدى المتقطّع ذاك، كان في الوادي العميق عندما القينا جثةَ الرجل، فتركتْ إثر تلقيها الأرضَ ضجةً زحزحتِ الأرض من تحتنا، حتى ندم بعضُنا على فعلتنا الشائنة. وخُيّل إلينا أنّنا نسير في رمال متحرّكة. ولما اخبرتُ أصحابي أنّ الهواء الدائر من حولنا يخلّف وشوشةً أشبه بالهمس وإعلانِ الموت المحقّق، لم يُجبني أحد منهم، كأنّهم لم يسمعوا ما قلتُه لهم. لكنّني تلقيتُه ثانيةً وثالثةً، حتى ظلّ يلازمني ويزورني بين حين وآخر. ولما تشققتْ اقدامُنا وتهرّأ لحمها من أسفل، زحفنا في الظلّ على مقاعدنا لكي نصل إلى أيّ منحدر أو ارتفاع؛ فقد ضاقت نفوسُنا بالأرض المنبسطة تمتد أمامنا بلا انقطاع أو نهاية.**

كان الليل قد جنّ جنونه، والهواءُ العليل يهبّ من النافذة ليترك في روحي استجابةً قويةً للإصغاء إلى حيث المدينةُ تفتح ذراعَيْها للّيل. كان عليّ السهرُ حتى الفجر مع المريض؛ فقد كانت وصايا الطبيب واضحةً لا لبس فيها. إذنْ، ماذا ينبغي أن أفعل وقد أصغيتُ بكل جوارحي إلى طيف من أطيافٍ حمّلَها الضوءُ الساطع لتحطّ أمامي؟ إنّها لحظة ينبغي ألا أدع للتردُّد فيها فسحة أو مجالاً لخيال سارح.

وحدي الآن مَنْ يسمع خفقَ الأقدام في الرواق، آتياً من هناك. قلتُ: دائماً يأتي النداءُ من هناك. فاجأني بقوله مستفسراً: ألم تأتِ أمك بعدُ؟

ـ لن تأتي يا أبي. إنّه الليل.

أغمض عينَيْه وترك شفتَيْه تتحرّكان وقد تجهّم وجهُه أيّما تجهم. كان تحت ناظري أرقبه عن كثب لئلا ينهار أو تلمّ به نوبةٌ من حنين. **«إذن، لن يأتي أحدٌ في هذا اللّيل.. لن تأتي أمّك. ستكون الزوايا المظلمة مأواها، وفي ظلّ الجدار سيكون وقوفها وسيلطم السكرانُ والصاحي خدّها»**. اندفعتُ إليه لأعرف إنْ كان يشتم أمي عن نباهة ووعي. أتراني سمعتُ الكلمات من صوتٍ آخر غير صوته؟ أوشكتُ على الصراخ به: «لن يأتي أحد، ولن تأتي أمي».. تأكدتُ أنّه يستهجن عبارتي الأخيرة. بدا فاقد الحيلة. علام ظلت أصابعه تقبض على حافة الشرشف، كأنّه هبة هواء خفية توشك على التحليق عالياً عبر النافذة المفتوحة. لكن الأجدر بي تكثيف مراقبتي له:

ـ ألا تحدثني بشيء؟ تكلمْ معي.

اعتراني خجل شديد. قيل لي، في بداية نوبتي معه، إنّ طبيباً يأتي بعد منتصف اللّيل، ليعود المرضى. حين تذكرتُ هذا تنفستُ الصعداء. ألقيتُ بجسدي على السرير الشاغر القريب من سرير رقدته. كان الضوء يحيل المكان إلى متراس مكشوف. غطستُ في الفراش وحركتُ رأسي ناحيته؛ أصبح باستطاعتي رؤيته من جانب واحد. وإذّاك عرفتُ أنّها الطريقة المثلى لوضعي معه. التقت عيوننا. شعّ طيف الابتسامة على وجهه. كانت يده من جهتي تتدلّى بارتخاء وسكينة. جربت تقليده في انطراحه، كأنّه يسترخي على أرجوحة معلّقة في فضاء مهجور. أعدتُ حركته، والعينان تحدّقان إلى سقف الغرفة. الغريب أنّي رأيتُ صورته أمامي. أوشك على التواري، ويده النحيلة تمتدّ من فتحة في زاوية، من أعلى الجدار. أتراه يناديني في إغفاءته للحاق به؟ لعلّه كان يَحْلم، أم تراني أنا الحالم الآن؟ وأيّ الطرق سنسلك في الوصول إلى نهاية المشوار؟ هل كان لنا مشوار له طريق يفضي إلى شيء معيّن؟ أصغيتُ إليه بانتباه شديد. غير أنّ تسرّب الضوء وتدفُّقه عليّ أوحيا بدخول شخصٍ ما إلى الغرفة. كانت الأطياف تزداد كثافةً وتَصْنع من حولنا شبكةً من أشباح تروح وتجيء، لتروح ثانية وتجيء ـ كلّمتُه مرتين فلم يجب ـ. رأيت زائراً لا أعرفه يُطلّ من فتحة الباب، والأنفاسُ تهبط وتعلو من مكان ما. جربتُ تحريك يدي، فسقطتْ متدليةً إلى الأرض وقد جفت المياهُ في جسدي. لعلّ هذا الثقل في الحركة مردُّه إلى صعوبة التنفُّس. حاولتُ إزاحة الغطاء القطنيّ عني، فلم أفلح. تمنّيْتُ لو أستطيع إزالة قطرات رشحتْ في جبهتي وجبيني. كنتُ أغوص في الفراش، ولم أعد تصديق ذلك الصوت العابر: «من منكما المريض هنا؟».

أدرتُ عينيّ في محجريْهما. لم أرَ أحداً. بل رأيتُ عشرات الظلال الرقيقة تحيط بي، والرنينُ يزداد كثافةً من حولي، ويمنع عني رؤيةَ الأشياء بوضوح.

بغداد